التصوف المنحرف .. كالسرطان مرض مهلك

أسامة شحادة – الأردن

منذ قرون والصوفية يزعمون أن التصوف هو صفاء القلب وإقباله على عبادة الله عز وجل، وكثرة ذكر الله عز وجل والإغراق في محبة النبي ﷺ، وأنه هو مرتبة الإحسان التي هي أعلى مراتب الإيمان، لكن هل هذا هو الواقع على الحقيقة؟

لماذا لا نرى من التصوف في الواقع والحقيقة إلاّ ما نبّه عليه الإمام الشافعي بقوله: «لو أن رجلاً تصوّف أول النهار لم يأتِ عليه الظهر إلا وجدته أحمق»[1]! وإذا كان الشافعي يتكلم عن تجربة شخصية في القرن الثاني الهجري، فإننا اليوم جميعًا في أنحاء المعمورة نشاهد هذه الحماقات الصوفية علانيةً، تنقلها لنا موجات الإنترنت بكل اللغات، وبالصوت والصورة والكتابة، سواءً في:

١- محاضرات يلقيها أقطاب التصوف فيقرّرون فيها:

- الترويج للشرك الصريح بالله عز وجل عبر إسباغ بعض خصائص الله عز وجل على بعض عبيده بحجة أنهم أولياء!
- أو يدّعون للبدع والمخترعات من الأوراد والأذكار مع الرقص والاختلاط!
- أو الكرامات الخبيثة مِن كشف العورات وترك الصلوات وارتكاب الموبقات!

٢- أو في مقاطع تَنقل لنا وقائع ما يجري في الموالد والحضرات:

- من رقص وغناء مختلط بين الرجال والنساء!
- جنون وحماقة في اللباس والكلام والحركات!
- ترك للصلاة وانشغال بألعاب الحواة بالثعابين وخفة اليد!

٣- أو مقاطع إخبارية تكشف مواقف متصوفة اليوم في تأييد الظلم والإجرام:

- فقد كانوا أعوان بشار يدعون له صباح مساء!
- وهم حلفاء للحشد الشيعي في العراق!
- وهم من سيّر المسلحين للتضامن مع الحوثي في مناطقه، أما في مناطق الشرعية فيلتزمون الصمت والتخذيل عن الدفاع في وجه العدوان الحوثي!

هذا التصوف المنحرف في واقعنا هو كمرض السرطان، ينمو كطرق وشظايا شاذة لا يمكن السيطرة عليها، ولديها القدرة على التسلل إلى جسد الأمة من داخله، حتى يصل إلى عقيدتها فيحرفها، ولعبادتها فيبدّلها، وإلى أخلاقها فيدمرها، وإلى قوتها فيضعفها، وإلى وحدتها فيمزقها!

والتصوف كالسرطان تساعده بعض المؤثرات الخارجية على التغلغل والانتشار، فالمستشرقون قديمًا روّجوا له، واليوم تقوم مراكز التفكير الإستراتيجية المعادية للمسلمين بذلك! ويحرص أهل الفن على توظيفه ونشر أفكاره وأخباره لتَقاطع مصالحهم بإبعاد المسلمين عن دينهم، وتفتيت قوتهم ووحدتهم، وتعلقهم بملذات الدنيا وشهواتها ولو كان ذلك تحت غطاء الدين.[2]

والتصوف المنحرف كالسرطان سرعان ما ينقسم على نفسه ويتكاثر بشكل سرطاني، ولذلك نجد الطرق الصوفية تنقسم على نفسها وتتكاثر فتصبح الطريقةُ طرقًا! وكثيرًا ما يكون الصراع على الزعامة بين أبناء الشيخ هو السبب! أو طمع كبير المريدين بالموارد المالية المتدفقة تحت عناوين النذور والموالد والهبات!

وكعادة السرطان وطفراته، فإن واقع التصوف المنحرف لا تتوقف فيه الطفرات! وهذا يَظهر كل سنة في أشكال احتفالات الموالد، أو التنافس في حكايات الكرامات المخترعة كل موسم، أو طرح الشبهات الإبليسية لترويج البدع والمنكرات بحجج لا أصل لها ولا سند.

وختامًا: فإن الواجب على من يدّعي الدفاع عن التصوف، أن يقدّم لنا التصوف الصحيح الملتزم بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية، ويلتزم كلام السادة العلماء الأجلاء، وأن يفضح التصوف المنحرف ويحاربه، وبذلك تتحقق منزلة الإحسان الحقيقية على أرض الواقع.

١ - مناقب الشافعي، البيهقي، ٢٠٧/٢.

٢- للتوسع انظر: التصوف والحياة الدينية في مصر المملوكية، أحمد صبحي، المحروسة للنشر، ج ٣.